قهوة إليسيا

وذلـك الصـوت المتهالـك الصادر من جهـاز الراديـو بالقرب منه. توجد إحدى الطاولات القديمة الطراز وتتصدر المشهد من أعلى.

هذه الطاولة برطمانات من مسـاحيق القهوة بأشـكال مختلفة. وفي الخلـف توجد تلك الأريكة ذات اللون الباهت التي يجلس في منتصفها ذلـك الرجل الذي يشرف على سـن التسـعين عامًا، يرتـدي نظارة نظر من الخمسينات. ويتوسط أسفل ذقنه بعض الشعيرات التي أغفل عنها أثنـاء الحلاقة، ليبدأ في رفع يده في بطءٍ ثم يقوم بجلب أحد البرطمانات ليبدأ باستنشـاق االقهوة. ثـم يتجه بنظره إلى الأمـام للحظات، ثم يبدأ بغـرس يـده مسـتغرقًا مسـتخدمًا إصبعـه الخنـصر؛ ليتذوق مسـحوق القهوة، لتبدأ علامات السعاده التحكم في ملامح وجهه المترهلة.

ليبدأ ملاحظة وجودي في المكان، يتجه بنظره إليّ محدقًا في محاولة معرفتي، ثم يبتسم. وفي صوتٍ متهالكٍ يصعب فهمه من حشرجة الصوت: لن تفهم ما أفعله، لكن ما عساك أن تفهم مايفعله رجل في عمري.

فجميع الأفعال نتيجة من قصة تحمل خلفها علامات استفهام وأشياء يصعب على المرء تصديقها أو تخيلها. نظرت إليه في دهشة محدثًا نفسي عن أمر تذوق القهوة قبل استخدامها، لصعوبة التفريق بين مساحيق القهوة، ماذا في الأمر؟.

ابتسمت وبصوت هادئ مواسيًا لحاله -أدام الله في عمرك ومنحك العافية- ليتجه بنظره مرة أخرى إلى مصدر بعض ضحكاته.

لم أكترث للقهوه في بداية عمري. لكنها الآن أصبحت كل ماتبقى لي من ذكريات تجتاح وجداني؛ لتصيب عيني بحوائط من الدموع الهائلة، مستمرًا أنا بالنظر إليه في دهشة بالغة؛ ليبدأ بهز رأسه ولتكترث بالأمر.

يمكنني أن أسرد لك القصة حتى يأتي حفيدي وائل، هززت رأسي مشيرًا بالموافقة ليبدأ بسرد القصة.

كعادتي الدائمة أذهب إلى «جروبي» في الساعة الرابعة عصرًا؛ لأتناول «لتروبس بيتر» هو أحد أطباق الآيس كريم الشهيرة. في ذلك الوقت أثناء دخولي شعرت بطاقة غير اعتيادية في المكان، تنتج عن أحد

الجالسين. جلست على طاولتي المعتادة حتى بدأت البحث عن مصدر هذه الطاقة والروح الغريبة. لأجد تلك الفتاة مصدرًا هذه الطاقة، فتاة في عقد العشرين بعينيها الزرقاوتين، وشعرها المصفف على شكل ذيل حصان، وبشرتها الناصعة، وقوامها الرشيق تجلس بالقرب مني؛ لتبدأ في تمعن المكان، وبتحريك عينيها بخفة بالغة، ثم تبدأ برفع يدها وتحريك أصابعها النحيلة في تناغم شديد؛ ليأتي مهرولًا أحد الجرسونات، تبتسم ابتسامة خافتة، وتبدأ بتحريك شفتيها في عذوبة رائعة؛ لتطلب فنجانًا من القهوة.

يسرع الجرسون لجلب القهوة في سرعة بالغة حتى ينال أحد ابتساماتها مجددًا، لتبدأ بمكافأته بأحد ابتساماتها على سرعة استجابته لطلبها. تبدأ برفع فنجان القهوة بالقرب من أنفها لتستنشق رائحته، ثم تتجه بنظرها إلى الأمام، وكأنها تحاول العثور على شيء ما.

سرعان ما تبدأ بالغوص بإصبعها الخنصر في فنجان القهوة، ثم تضعه في فمها. يمكن أن يكون المشهد مزعجًا للبعض، ولكنه في حقيقة الأمر هو أعظم مشاهد حياتي، وفي اعتقادي أنه ليس من المنصف سرد المشهد لنكمل، لتبدأ بعد ذلك باستدعاء الجرسون، ثم تقوم بإخراج أحد الأكياس ذهبية اللون من حقيبة يدها؛ لياخذها الجرسون وتبدأ

بإعطائـه بعض التعليمات، ليذهب الجرسـون مسرعًا مع فنجان القهوة والكيـس الذهبـي، ثم يـأتي بعد دقائق يحمـل الكيس الذهبـي وفنجان قهـوة آخر لتعيـد مافعلته مرة أخرى. ولكن قد وضح أنها استحسـنت القهوة، وأيضًا تبدأ في ملاحظة مراقبتي إليها لتتجه بنظرها إليّ، لأتظاهر بالتمعن في شيء آخر.

وبعـد لحظـات الكر والفر تتجـه بنظرها إليّ، تخرج مـن حقيبة يدها أحـد السـجائر الرفيعة وتبحـث عن شيء مـا. ولكنها لم تجده لتسـتمر بالنظر إليّ، وتبدأ بالحديث إليّ: أيمكنني أن أشعل سيجارتي؟

أذهب إليها مسرعًا؛ لأقوم بإشـعال السـيجارة، ثـم تتجه بنظرها مرة أخرى إليّ محدثاني بلغتها العربية الرديئة: أنصحك بعدم تناول القهوة هنا.

لأبتسـم ابتسـامة خافتـة أحـاول بهـا كبت سـعادتي للتقـرب منها. وبصـوتٍ خافـتٍ هـل هـي سـيئة إلى هـذا الحـد لتقـوم بإطـلاق أحد ضحكاتها التي ترسلك مباشرة إلى الجنة؟

ليست سيئة كثيرًا.

اسـتمر الابتسـامات عسـى أن تدعـوني للجلوس معهـا خصوصًا ونحـن الوحيدين اللذين نجلس بمفردنا، وبالفعل كأنها تقرأ أفكاري، تعرض علي أن أشاركها الجلوس. لم أتردد للحظة، وسرعان ماجلست

معها، حتى تبدأ باستدعاء الجرسون مرة أخرى، وتعطيه ذلك الكيس وتطلب منه أن يحضر فنجانًا آخرًا من القهوة، لينظر إليها الجرسون منتظرًا لأخبره عن كيف تكون قهوتي ليساعدني على عدم التمعن بها.

أخبرت الجرسون عن قهوتي، ثم ذهب لتبدأ هي بالاعتذار عن طلبها من الجرسون في إحضار فنجان قهوة إلي.

لكنها أرادت فقط أن أتذوق البن الخاص بها، وأنه يمكنني أن أطلب ما شئت محدثًا نفسي في ذلك الوقت: لم أكترث إلى القهوة، ولا تروق لي مطلقًا.

هززت رأسي مشيرًا بالموافقة، وتفهم الموقف، ثم قمت بسؤالها عن الآيس كريم، لتجيب: بأنه لا يروق إليها مطلقًا.

شردت بتفكيري في كيف لا ينال الآيس كريم على إعجابها. وهو مثلها تمامًا يشتاق الإنسان لما هو بعيدًا عنه وهو غريب عنه. هي تشتاق إلى القهوة ذات الطعم المر وأنا أشتاق إلى الآيس كريم. ابتسمت معلنًا خروجي من حالة الصمت التي أنا عليها لأستأنف حديثي مرة أخرى.

- سليم رستم.

- لتبتسم، إليسيا رايت.

ليأتي الجرسون مع فنجان القهوة، ولتبدأ هي الحديث عن القهوة وعن معرفتها إن كانت جيدة أم لا.

ثـم تطرقنا بالحديث عـن بلدها لندن والقاهرة، وعـن الفن والجمال والموضة حتى أنهينا القهوة وسرقنا الوقت.

وفي نهاية الحديث وهي توشك على الرحيل عرضت عليها أن نلتقي مـرة أخرى. لتجيـب بأنها لاتسـتطيع حتى يظهر عليهـا الخجل، وتبدأ بإيضاح الأمر.

لن تتمكن من أن نلتقي مرة أخرى؛ لأنها ستغادر القاهرة.

ولتعوضنـي عن هـذا، تعرض عليّ تبـادل أرقام الهاتـف عوضًا عن المقابلة، وحتى يتسنى لها إخباري عن زيارتها القادمة، قبلت.

وأثناء مغادرتها المكان نظرت إليّ ثم قالت بصوت يملؤه الحزن:

انتظر هديتي لك عند زيارتي المرة القادمة للقاهرة في القريب.

لم أتفهـم هذا ولكن كانت قد سـيطرت عليّ في هذا الوقت القصير، لتملأ روحي بابتساماتها الرقيقة وصوتها العذب وكلماتها الموسيقية.

غادرت المكان ولكنها لم تغادر روحي واسـتمرت في الحياة بداخليّ، وسـارعت في أن أنحيها جانبًا، ولكن لم أتمكن. بعد ثلاثة شـهور قمت بالاتصـال بالرقم الذي قد منحتني إيـاه وأثناء المكالمة قررت أن أفصح لهـا عن رغبتـي في رؤيتها. وأنهـا إن لم تأتي هي إلى القاهرة، فسـأزور أنا لنـدن. حتى قطع حديثي مـع نفسي صوت تلك المـرأة التي واضح من

صوتها أنها في الخمسينات، تجيب عليّ محدثًا لها بنفس لغتها:

هل يمكنني أن أحدث إليسيا؟

لتنهار في البكاء وتحاول أن تتمالك نفسها مرة أخرى متسائلة عن هويتي؛ لأجيب عليها. لتنهال مرة أخرى الدموع، وتشعرني هذه المرة بالدهشة والخوف لتتساءل عن عنواني، لأتجاهل تساءلها، لأتساءل أنا عن إليسيا.

لتجيب بأنها ماتت لتصيبني بالفاجعة، وتشعرني بعدم القدرة على الحديث. انتظرت لبعض الوقت، وهي تحاول أن تجعلني أخبرها بعنواني، حتى تساءلت في أهمية معرفة عنواني الآن. حتى تجيب بأن إليسيا أوصت بإرسال شيء لك، أخبرتها عن عنواني وأنهيت المكالمة.

وسرعان ما استمر الصمت لساعات بل أيام حتى وصلتني هدية إليسيا من لندن.

كانت عباره عن صندوق به بعض فناجين القهوة بأشكال مختلفة، وحبات القهوة السوداء، والكثير من مساحيق القهوة، ومظروف به جواب يحمل أخر كلمات إليسيا إليّ. لتخبرني بما أصابني بعدم القدرة على النطق، والصمت الذي أصابني لفترة كبيرة. كانت كلماتها:

«عزيزي سليم أعتذر عن عدم ملاقاتك في القاهرة، ولكن لم تكن رغبتي. ولكن دعني أخبرك أن مقابلتي لك كانت رائعة بكل المقاييس.

عند قراءة كلماتي سوف أراك أنا من السماء، لا تنزعج كثيرًا فأنا في أطيب الأحـوال الآن. كنت مصابة بسرطان في الدم. وكانت أيامي في القاهرة أخـر أيامـي، وعند تواجـدك في المقهى شـعرت برغبتـك بالتقرب إليّ. فتجاهلتـك في بدايـة الأمر، ولكن سرعان ما شـعرت أن من الممكن أن تكون ذلك الصديق أو الحبيب الذي يمنحني طاقة لاسـتكمال مابدأت به. وكنت أتمنى هذا كثيرًا ولكن قد فات الموعد كما شـعرت أيضًا أنك لا تميل لتناول القهوة، ولكنك تحملت هذا من أجلي. أشكرك كثيرًا على تحمـل شيء مزعج بالنسـبة إليك. أرجو منك أن تصـلي من أجلي دائمًا، وتتذكرني دائمًا عند تناول قطرات القهوة».

عزيزتك إليسيا رايت

ليسـود الصمت في المكان بعد تلفظ كلماته الأخيرة، وأنا مسـتمر في حالة دهشـة مـن الأمر. يبكي هـذا الرجل من أجل امـرأة لم يعرفها إلا بضع ساعات، ومستمر في ذكراها؛ ليكسر هذا الصمت ويبدأ بالحديث وهو يبتسم، حتى يتغلب عليه مرة أخرى حوائط من الدموع.

يحدثني عن اسـتمرار تناول القهوة حتى الآن. وأنه أصبح الآن يعلم كل شيء يخـص هذا الأمر. يبدأ بتجميع شـتات روحـه حتى يتجه بنظره إليّ مرة أخرى قائلًا:

يحق لك قول هذا فأنت لا تعرف حقًا قهوة إليسيا.